

لقد هيمن التياران البنيوي والتوليدي على الساحة اللسانية لمدة طويلة ، إلى أن أفرزت الدراسات المعاصرة نظريات ومفاهيم لغوية ، مبنية على أسس معرفية متباينة انبثقت عنها تيارات لسانية جديدة ، أبرزها التيار التداولي .

وهو تيار لساني يدرس علاقة اللغة بمستعملها ، ويركز على كيفية استعمال العلامات اللغوية بنجاح من خلال السياق والمقام الذي ينجز ضمنه الخطاب ، كما أن التيار التداولي يبحث عن العوامل التي تجعل الخطاب ناجحاً .

لقد تناول الدارسون وظيفة اللغة ، خاصة الغربيون منهم ، وبحثوا في جميع جوانبها سواء المتعلقة بخصائص اللغة ذاتها أو باستعمالها التداولي ، ولكن البحث في التراث العربي عن مفاهيم التداولية ومبادئها لم يأخذ حقه ، رغم أننا لو تمعنا في علم البلاغة لوجدنا أن أغلب التعريفات التي أعطيت للغة والبلاغة في تراثنا العربي تبين أن التداولية موجودة بالقوة ، وبالفعل أحياناً ، في أغلب جوانبها .

ورغم أن بعض الدارسين قد كتبوا في التداولية من وجهة نظر تراثية ، سواءً نحوية أو بلاغية أو أصولية إلا أنهم لم يعمموا الكلام عن التداولية في جميع جوانبها، وركز أغلبهم على جانب واحد ، كأفعال الكلام أو السياق أو استراتيجيات الخطاب ، ومن ذلك نذكر كتاب : (التداولية عند العلماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي) للباحث مسعود صحراوي، والذي تناول ظاهرة أفعال الكلام فقط وبحث عن أصول الأفعال الكلامية في التراث العربي عموماً، سواءً البلاغيين أو الأصوليين أو الفلاسفة وقابلها بما توصلت إليه التداولية . كما تناول الباحث خليفة بوجادي التداولية من منظور تراثي في كتابه (في اللسانيات التداولية – مع محاولة تأصيلية في درس العربي القديم)، وعلى أهمية هذا الكتاب ، الذي بين أصول التداولية في درس العربي القديم، إلا أنه لم يفرد علماً بعينه وإنما مزج بين أصولها عند البلاغيين والأصوليين والنحويين.

لذلك حاولت أن أجمع هذه الجوانب الثلاثة ، وأبحث عن جذورها في تراثنا البلاغي

العربي .

لقد اعتمدت في هذه الدراسة على مصطلحات البلاغيين ثم قابلتها بما توصلت إليه التداولية اليوم ، وليس العكس ، دون تحديد بلاغي بعينه ، وإنما بالاعتماد على بلاغيين المرحلتين ، مرحلة النشأة والتأصيل ، ومرحلة الضبط والتععيد.

إن الباحث في البلاغة العربية قد يذهب به الظن إلى أن البلاغيين العرب اهتموا بالجماليات وأسس الفصاحة ، أو أنهم اعتمدوا على اللسانيات الصارمة انطلاقاً من علم النحو ، دون أن ينتبه أن هناك أمور كثيرة قد اعتنوا بها أو أشاروا إليها على الأقل ، مثل : وظائف اللغة ، مركزين في ذلك على الوظيفة التبليغية التواصلية ، مما أفضى بهم إلى بعض أسس التداولية كالسياق واستراتيجيات الخطاب ، ومبادئه بداية من مبدأ الاقتضاء والإفادة وغيرهما ، إلى تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء ثم تقسيم كل منهما تقسيماً تفصيلياً معتمدين في ذلك على عدّة معايير تداولية .

وبما أن أصول المشكلة أصبحت واضحة جلية ، فقد حاولت المساهمة مع بعض السابقين في هذا المجال في محاولة الكشف عن المنحى التداولي في التراث البلاغي العربي.

ولعلّ أهم الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع ، هو أن اللسانيات التداولية أضحت أظهر فروع اللسانيات الاجتماعية وارتقت إلى أن تكون من أهم المعلومات اللسانية برمتها ، بالإضافة إلى اهتمامي بتقصي التراث العربي والكشف عن أغواره دون تمحلّ أو تحيز ، بل عن طريق الإثباتات العلمية المؤسّسة ، وذلك بالرجوع إلى مصادر التراث البلاغي والوقوف على أهم ما كتب في هذا المجال.

وجاء تحديدي للتراث البلاغي العربي ، بمثابة حصر للموضوع حتى لا تتناثر أطرافه بين التراث البلاغي للغات وأمم أخرى .

والجدير بالذكر أنني اعتمدت كذلك – أحيانا – على بعض الفلاسفة كنصر الدين الفارابي ، وعلماء الأصول كبدر الدين الزركشي ، ولكن فيما تطرقوا فيه إلى جوانب بلاغية محضة .

والسبب الآخر هو أنني أردت المواصلة في الاتجاه الذي كنت قد تطرقت له في
مذكرة الماجستير والموسومة بـ (أشكال التواصل في التراث البلاغي العربي – دراسة في
ضوء اللسانيات التداولية -)

وقد بدأت بحثي هذا بتمهيد تطرقت فيه إلى أبرز المفاهيم التي تقوم عليها التداولية
وهي (أفعال الكلام / القصديّة / الاستلزام التخاطبي / متضمنات القول / نظرية الملاءمة)
ثم انتقلت إلى البلاغة مبينا مفهومها لغة واصطلاحاً ، متطرقاً إلى شروطها .

ثم بعد ذلك قسمت البحث إلى ثلاثة أبواب ، حيث كان عنوان الباب الأول : (تداولية
السياق) ، وقسمته إلى فصلين ، كان الفصل الأول فيه بعنوان (السياق بين النح و
والبلاغة) ، وضحت في بدايته مفهوم السياق عموماً عند البلاغيين العرب ، ثم عند الغربيين
ثم تعرضت إلى السياق اللغوي بشقيه ، الصوتي والنحوي ، ومنه انتقلت إلى مفهوم السياق
المقامي عند البلاغيين وكيف عولج مقارنةً ذلك بما تكلم عنه الغربيون في هذا المقام ، أمّا
العنصر الأخير في هذا الفصل فقد كان (السياق والتأويل) أي عملية إعادة إنتاج المعنى أو
ما سماه الشيخ عبد القاهر الجرجاني بـ (معنى المعنى) .

أمّا الفصل الثاني من هذا الباب فقد كان (البلاغة والسياق) وتعرضت فيه إلى علاقة
اللفظ بالمعنى في التراث البلاغي ، ثم المقام ومنه إلى الأغراض البلاغية للأسلوب التي
يكشف عنها الموقف الذي قيل فيه الكلام ، ثم تعرضت إلى الفصاحة والسياق ، موضحاً
العلاقة الرابطة بينهما .

وبعد هذا الباب انتقلت إلى الباب الثاني الذي عنوانه بـ (التواصل واستراتيجيات
الخطاب) والذي قسمته إلى فصلين ، كان الأول منهما (قواعد التخاطب ومبادئه)
فوضحت مفهوم التواصل في التراث البلاغي العربي ثم عند الغربيين ، ومنه عرفت
الإستراتيجية الخطابية ، حيث تطرقت إلى (قاعدة الإفادة ، قاعدة القصد ، قاعدة الإخبار
والشمول ، قاعدة الصدق) ، وكل ذلك من خلال مقولات البلاغيين العرب ثم تطرقت إلى
مبادئ الخطاب بادئاً إياها بمبدأ الاقتضاء ، ثم مبدأ التأدب ، فمبدأ التصديق ، والقواعد

المتفرعة عنه .

أمَّا الفصل الثاني فعنوانته ب (إستراتيجيات الخطاب) ، تطرقت فيه إلى العوامل المؤثرة في اختيار الإستراتيجية الخطابية ، و هي (المقاصد ، السلطة) ثم تطرقت إلى الإستراتيجيات التي رأيت أنها متوفرة في الدرس البلاغي التراثي وهي :

- الإستراتيجية الإقناعية.

- الإستراتيجية التلميحية .

- الإستراتيجية التوجيهية .

وقد عرفت كل إستراتيجية ثم وضحت مصوغات استعمالها ومنها إلى آلياتها البلاغية .

أمَّا الباب الثالث والأخير فهو (أفعال الكلام في التراث البلاغي) ، وفيه فصلان ، الفصل الأول وهو ، (معايير تقسيم الخبر والإنشاء) حيث بدأته بتعريف الفعل الكلامي وتصنيفاته عند أوستين ثم سيرل ثم انتقلت إلى المعايير التي اعتمدها البلاغيون العرب في تقسيمهم الخبر والإنشاء ، ذلك لأن أفعال الكلام في البلاغة العربية متمثلة في هذه الظاهرة (أي الخبر والإنشاء) فوقفت على هذه المعايير وهي (معيار الصدق والكذب / معيار القصدية / معيار النسبة الخارجية / معيار اعتقاد المتكلم / معيار القرينة الحالية)

أمَّا الفصل الثاني منه فهو (تقسيم البلاغيين للخبر والإنشاء) حيث قسموا الكلام تقسيماً عاماً وهو الخبر والإنشاء ، ثم قسموه تقسيماً تفصيلياً أي أن كل قسم من القسمين السابقين له تقسيمات تفصيلية ، وبعد هذه الأبواب الثلاثة بفصولها الستة ، خلص البحث الى خاتمة تناولت فيها أهم النتائج التي خلص إليها البحث .

ولما كان المنهج المتبع في الدراسة بمثابة الطريق والدليل في الرحلة ، فقد اعتمدت المنهج الوصفي الاستقصائي ، وذلك باستقصاء ما جاء في التراث من سمات تداولية ثم وصفها وتوضيحها ، مع مقارنتها بما جاء عند علماء التداولية المعاصرين .

وقد اعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع ، أهمها كتب البلاغة العربية ككتاب البيان والتبيين للجاحظ (المتوفى 255 هـ)، ودلائل الإعجاز للجرجاني (المتوفى 471 هـ) ، ومفتاح العلوم للسكاكي (المتوفى 626 هـ) وتلخيص المفتاح للقزويني (المتوفى 739 هـ) ، وكتاب شروح التلخيص ، بالإضافة إلى أهم كتب التداولية ككتاب نظرية أفعال الكلام العامة لجون أوستين واللغة والعقل والمجتمع لجون سيرل ، وكتاب التداولية لجورج يول وغيرها من الكتب التي عالجت هذا المنهج .

وكل بحث لم يخل هذا الأخير من صعوبات خاصة في الحصول على أهم المصادر والمراجع ، ولعل أبرزها كتاب نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب لطالب سيد هاشم الطبطبائي، إضافة إلى ظروف العمل .

وطبعًا يظل الفضل الأول في إنجاز هذا البحث للعليّ القدير جلّ شأنه ، ثم لأستاذي المشرف ،الأستاذ الدكتور محمد بوعمامة ،الذي ترك بصمة بارزة في هذا الانجاز ، فله كل الاحترام والتقدير،وجزاه الله عني خير الجزاء. .

وأخيرا أسأل المولى جلّ وعلا التوفيق والسداد .